

بتعليمهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

﴿واصطبر عليها﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها

وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال:

﴿نحن نرزقك﴾ أي: رزقك علينا

قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلاق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: **﴿والعاقبة﴾** في الدنيا والآخرة **﴿للمتقوى﴾** التي هي فعل المأمور وترك النهي، فمن قام بها، كان له العاقبة، كما قال تعالى: **﴿والعاقبة للمتقين﴾**.

﴿أولم يكفهم﴾ أنا أنزلنا عليك

الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون **﴿** فالآيات تنفع المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعرضون عنها المعارضون لها، فلا يؤمنون بها، ولا ينتفعون بها، **﴿** إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون **﴿** ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب **﴿** وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم حجة الله، ولثلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: **﴿** لو لا أرسلت إلينا رسولا **﴿** فنتنبح آياتك من قبل أن نذل ونخزي **﴿** فنتنبح آياتك من قبل أن نذل ونخزي **﴿** بالعبودية، فما قد جاءكم رسولي ومعها آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون، فصدقوه.

﴿ قل يا محمد مخاطباً للمكذبين لك

الذين يقولون تربصوا به رب المنون **﴿** قل كل متربص **﴿** فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب **﴿** قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين **﴿** أي: الظفر أو الشهادة **﴿** ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعداب من عنده أو

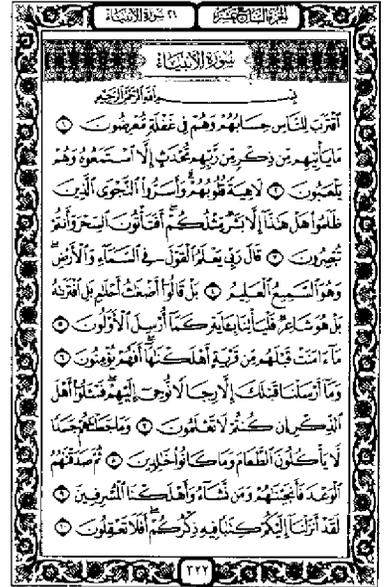
باعتادهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

باعتادهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

﴿١٣٣ - ١٣٥﴾ **﴿وقالوا لولا**

يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى **﴿** ولو أنا أهلكناهم بعداب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتنبح آياتك من قبل أن نذل ونخزي **﴿** قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى **﴿** أي: قال المكذبون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: **﴿** وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً **﴿** أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً **﴿** أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً **﴿**

وهذا تعنت منهم وعناد وظلم،



عجبها وعساقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختباراً، ليعلم من يقف عندها ويعتر بها، ومن هو أحسن عملاً، كما قال تعالى: **﴿** إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً **﴿** وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جزراً **﴿**

﴿ورزق ربك﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والأجل من التعميم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم **﴿** خير **﴿** مما متعنا به أزواجاً، في ذاته وصفاته **﴿** وأبقى **﴿** لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها، كما قال تعالى: **﴿** بل تؤثرون الحياة الدنيا **﴿** والآخرة خير وأبقى **﴿**

وفي هذه الآية، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه ظموحاً إلى زينة الدنيا، وإقبالاً عليها، أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿١٣٢﴾ **﴿وأمر أهلك بالصلاة**

واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى **﴿** أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعمهم إليها من فرض ونفل. والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمراً



ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال، فبذلك يتم لهم أمرهم، وتستقيم أحوالهم، وترتكوا أعمالهم، وفي معنى قوله: ﴿أقرب للناس حسابهم﴾ قولان: أحدهما أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة، فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم، لقوله ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين إصبعيه، السبابة والتي تليها.

والقول الثاني: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات، قامت قيامته، ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض، لا يدري متى يفجؤه الموت، صباحاً أو مساءً، فهذه حالة الناس كلهم، إلا من أدركته العناية الربانية، فاستعد للموت وما بعده.

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا، وتواطوا فيما بينهم، أن يقولوا في الرسول ﷺ إنه بشر مثلكم، فما الذي فضله عليكم، وخصه من بينكم، فلبوا ادعى أحد منكم مثل دعواه، لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يتفضل عليكم، ويرأس فيكم، فلا تطيعوه، ولا تصدقوه، وأنه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر، فانفروا عنه، ونفروا الناس، وقولوا: ﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقاً بما شاهدوا^(١) من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد، والله تعالى قد أحاط علماً بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال: ﴿قال ربي يعلم القول﴾ أي: الخفي والجلي ﴿في السماء والأرض﴾ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿وهو السميع﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿العليم﴾ بما في الضمائر، وأكنته

بأيدينا. ﴿فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي﴾ أي: المستقيم، ﴿ومن اهتدى﴾ بسلوكة، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب، وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه، والله أعلم.

تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام، وهي مكية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون * قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم * هذا تعجب من حالة الناس، وأنه لا ينجع فيهم تكدير، ولا يرعوون إلى تذكير، وأنهم قد قرب حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة، والحال أنهم في غفلة معرضون، أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به. كأنهم للدنيا خلقوا، وللتمتع بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم، ولهذا قال: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ يذكرهم ما ينفعهم ويحشهم عليه وما يضرهم، ويرهبهم منه ﴿إلا استمعوه﴾ سماعاً، تقوم عليهم به الحجة، ﴿وهم يلعبون﴾ لاهية قلوبهم ﴿أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبتها الدنيوية، وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل، والأقوال الردية، مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة، تقبل قلوبهم على أمر الله ونبيه، وتستمعه استماعاً، تفقه المراد منه، وتسمى جوارحهم في عبادة ربهم، التي خلقوا لأجلها،

السرائر.

﴿٥ - ٦﴾ ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ ما أنت قلوبهم من قرية أهلكتها أنهم يؤمنون ﴿يذكر تعالى إئتفاك المكذبين بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم سفهوه^(٢)، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة، فتارة يقولون: ﴿أضغاث أحلام﴾ بمنزلة كلام النائم الهادي، الذي لا يحس بما يقول، وتارة يقولون: ﴿افتراء﴾ واختلقه وتقوله من عند نفسه، وتارة يقولون: إنه شاعر وما جاء به شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع، من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به، جزم جزمًا لا يقبل الشك، أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحداً من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك، ليعارضوا مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدروا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقض مضاجعهم وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء، وإنما يقولون هذه الأقوال فيه - حيث لم يؤمنوا به - تنفيراً عنه لمن لم

(٢) في ب: تقولوه فيه.

(١) في ب: بما يشاهدون.

أبدأ.

الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴿٧﴾

وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ من الكتب السالفة، كأهل التوراة والإنجيل، ويخبرونكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر^(١)، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك، وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبيه، لا مريم ولا غيرها، لقوله ﴿إلا رجالاً﴾.

﴿١٠﴾ ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ لقد أنزلنا إليكم - أي المرسل إليهم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - كتاباً جليلاً، وقرأنا مبيناً ﴿فيه ذكركم﴾ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إن تذكركم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم، ﴿أفلا تعقلون﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة، فلو كان لكم عقل، لسلكتم هذا

﴿٧-٩﴾ ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين﴾ هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلاً كان ملكاً، لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق، وهلاً كان خالداً؟ فإذا لم يكن كذلك، دل على أنه ليس برسول.

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسول، تشابهوا في الكفر، فتشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بإثبات الرسل قبله - ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته - بأن الرسل قبل محمد ﷺ، كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطراً عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال محمد ﷺ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يُقرُّ بهم المكذبون ل محمد؟ فهذا الزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن يقرؤا برسول من غير البشر، إن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها، وتناقضهم بها، فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأساً، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكاً مخلداً، لا يأكل الطعام، فقد أجاب [الله] تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي



يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كاف شاف، فمن طلب دليلاً غيره، أو اقترح آية من الآيات سواء، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من آيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة، لأنهم إن كان^(١) قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة - على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات - لا يؤمنون قطعاً، فلو جاءهم كل آية، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ أي: كساقة صالح، وعصا موسى، ونحو ذلك، قال الله: ﴿ما آمنت قلوبهم من قرية أهلكناها﴾ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة. فالأولون ما آمنوا بها، أفؤمن هؤلاء بها؟ ما الذي فضلهم على أولئك، وما الخير الذي فيهم، يقتضي الإيمان عند وجودها؟ وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم

(٢) في ب: من أهل.

(١) كذا في ب، وفي أ: كانوا.

لعجزهم وفقيرهم، ولكونهم عبداً، قد استحقت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَذَا ذَكَرَ مِنْ مَعِيَ وَذَكَرَ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلة العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها، برهان وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع، يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لحفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفقتوا إليه أدنى التفات، تبين لهم الحق من الباطل تبيناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بيّن أنها تبين في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ فكل الرسل، الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿٢٦٦ - ٢٦٩﴾ قالوا اتخذ الرحمن

والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا مانعة ولا معارضة، فدل ذلك على أن مديره واحد، ورب واحد، وإله واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادها معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذا تبين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير مانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سِبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذْ لَا يَتَّبِعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، ولهذا قال هنا: ﴿سِبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فربوبية^(١) ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه. ﴿لَا يُسألُ عَمَّا يُفَعَلُ﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول، ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضع الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وَهُمْ﴾ أي: المخلوقون كلهم ﴿يُسألُونَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم،

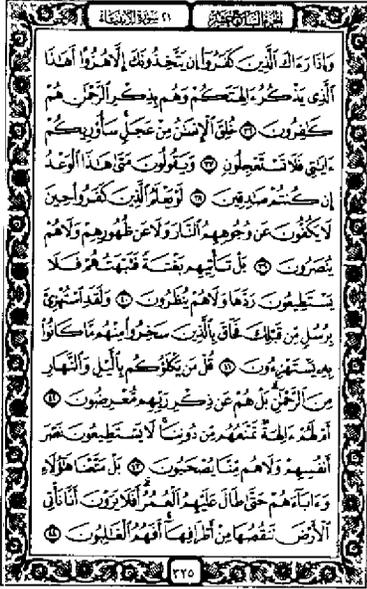
أبداً. ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: مستغفرين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ منها ولا حال منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمتهم وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تُضَرَفَ العبادة لغيره.

﴿٢٥٠ - ٢٥١﴾ ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ * لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل وهم يسألون * أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون * وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون * لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمتهم، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة ﴿هُم يُنشِرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يُخْلِقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴿فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله، الذي له الكمال كله ويبيده الأمر والنفع والضرر، وهذا من عدم توفيقه، وسوء حظه، وتوَفَّرَ جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود، إلا على إله واحد، كما أنه لم يوجد إلا برب واحد.

ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما، من المخلوقات.

وبيان ذلك: أن العالم العلوي

(١) في النسخين: فربوبية.



وعنت وجوههم لعزه وجماله، فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئاً من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك، ذكر أيضاً أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: ﴿إني إله من دون الله﴾ على سبيل الفرض والتنزل ﴿فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾. وأي: ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه، مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية!

﴿٣٠﴾ أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون؟ أي: أو لم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود، الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونها رتقاً، هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة لا نبات فيها، ففتقناهما: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافياً لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؛ قد اغترت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت وتحركت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، أليس ذلك^(١) دليلاً على أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أفلا يؤمنون﴾ أي: إيماناً صحيحاً، ما فيه شك ولا شرك.

ثم عدد تعالى الأدلة الألفية فقال: ﴿٣١-٣٣﴾ ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن نتيد بهم وجعلنا فيها فجاًجاً سبلاً لعلمهم يتدون﴾ * وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون * وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك

ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين * يخبر تعالى عن سفاهة الشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولداً فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة، بأنهم^(٢) عبيد مربيون مديرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصبرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامتثال لأوامره.

﴿لا يسبقونه بالقول﴾ أي: لا يقولون قولاً مما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول الله، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

﴿وهم بأمره يعملون﴾ أي: مهمما أمرهم، امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه، فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله، ومع هذا، فإله قد أحاط بهم علمه، فعلم ﴿ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي: أمورهم الماضية والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره.

ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم وارتضى من يشفعون فيه، شفّعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، متبعاً فيه الرسول. وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون. ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ أي: خائفون ووجلون، قد خضعوا لجلاله،

يسبحون.

أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لثلا تمجد بالعباد، أي: لثلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المنافع والمناجى ما حصل، ولما كانت الجبال متصل بعضها ببعض، قد اتصل اتصالاً كثيراً جداً، فلو بقيت بحالها جبلاً شامخات، وقُللاً باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاًجاً سبلاً، أي: طرقاً سهلة لا حَزَنَةً، لعلمهم يتدون إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلمهم يتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

﴿وجعلنا السماء سقفاً للأرض التي أنتم عليها﴾ محفوظاً من السقوط إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴿محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع.

﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أي: غافلون لاهون، وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها،

(١) في النسخين: بأنه.

(٢) زيادة من هامش ب.

رسول الله ﷺ، استهزؤا به، وقالوا: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ أي: أهذا المحتقر بزعمهم، الذي يسب آلهتكم ويذمها ويقع فيها، أي: فلا تبالوا به، ولا تحفظوا به.

هذا استهزاؤهم واحتقارهم له، بما هو من كماله، فإنه الأكمل الأفضل، الذي من فضائله ومكارمه، إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر عمله ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب وجحدهم لرسله، فصاروا بذلك من أخس الخلق وأرذلهم، ومع هذا، فذكرهم للرحمن، الذي هو أعلى حالاتهم، كافرون بها، لأنه لا يذكرونه، ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذكرهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ وفي ذكر اسمه ﴿الرحمن﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع النقم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا إياه - بالكفر والشرك.

﴿خلق الإنسان من عجل﴾ أي: خلق عجبواً، يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطؤونها، والكافرون يتولون^(١) ويستعجلون بالعذاب، تكذيباً وعتاداً، ويقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ والله تعالى يمهل ولا يهمل، ويحلم، ويجعل لهم أجلاً مؤقتاً ﴿إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ولهذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾ أي: في انتقامي ممن كفر بي وعصاني ﴿فلا تستعجلون﴾ ذلك، وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قالوا هذا القول، اغتراراً، ولما يحق عليهم

والخير فتنه وإلينا ترجعون ﴿لما كان أعداء الرسول يقولون^(١) تبرصوا به رب المنون. قال الله تعالى: هذا طريق مسلك، ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر ﴿من قبلك﴾ يا محمد ﴿الخلد﴾ في الدنيا، فإذا مت، فسيبل أمثالك، من الرسل والأنبياء والأولياء، وغيرهم.

﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ أي: فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذاً إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فإن، ولهذا قال: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنه منه تعالى ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، ﴿إلينا ترجعون﴾ فجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿ومأربك بظلام للعبيد﴾ وهذه الآية، تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿٣٦ - ٤١﴾ ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهدا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردماً ولا هم ينظرون * ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون * وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا



وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الشوابت والسيارات، وشمسها وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونها دائماً في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عبادتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويهدؤون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم، ويسعون في معاشهم، كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزمًا لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقتة في وقت معلوم، إلى أجل محتم، يقضي العباد منها ما ربه، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا، ستزول وتضمحل، ويفنيها الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملاً موفراً، ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

﴿٣٥ - ٣٤﴾ ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ كل نفس ذائقة الموت وتبلوكم بالشر

(١) في النسخين: يقولون قل تبرصوا.

(٢) في أ الكلمة أقرب إلى أن تكون يقولون وفي ب غير واضحة وكلمة (يتولون) أقرب مناسبة للسياق.

العقاب، وينزل بهم العذاب.

﴿لو يعلم الذين كفروا﴾ حالهم الشنيعة حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم، إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وعشيهم من كل مكان ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي: لا ينصروهم غيرهم، فلا نصروا ولا انتصروا، ﴿بل تأتيهم﴾ النار ﴿بغتة فتبهتهم﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم، ﴿فلا يستطيعون ردها﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك.

﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا، ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقوله: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ سلاة بأن هذا ذاب الأمم السالفة مع رسلهم، فقال: ﴿ولقد استهزئوا برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم﴾ أي: نزل بهم ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ أي: نزل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب، فليحذر هؤلاء، أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿قل من يكلوكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا تأتي الأرض نقصها من أطرافها أنهم الغالبيون﴾ يقول تعالى - ذاكراً عجيز هؤلاء، الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحته، شملت البر والفاجر، في ليهم ونهارهم - فقال: ﴿قل من يكلوكم﴾ أي: يحرسكم ويحفظكم ﴿بالليل﴾. إذ كنتم نائمين على فرشكم، وذهبت حواسكم ﴿وبالنهار﴾ وقت انتشاركم وغلقتكم ﴿من الرحمن﴾ أي: بدله غيره، أي: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو.

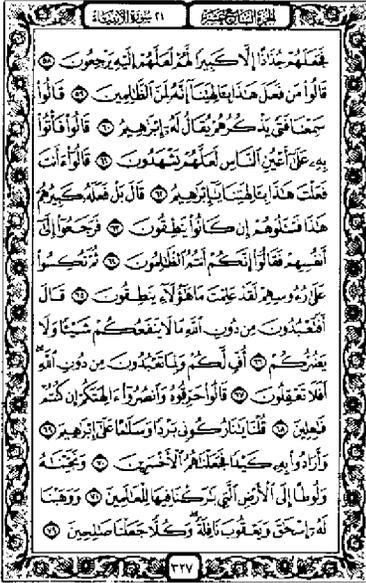
﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ فلهذا أشركوا به، وإلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه، لهدوا لرشدهم، ووقفوا في أمرهم.

﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ أي: إذا أردناهم بسوء، هل من آلهتهم من يقدر على منعهم من ذلك السوء، والشر النازل بهم؟؟

﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون﴾ أي: لا يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعانون من الله، فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة، والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم، وشركهم قوله: ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهو بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وعسا طغيانهم، وتغلظ كفرانهم، فلو ألفتوا أنظارهم إلى من عن يمينهم وعن يسارهم من الأرض، لم يجدوا إلا هالكاً، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك، ولهذا قال: ﴿أفلا يرون أنا تأتي الأرض نقصها من أطرافها﴾ أي: يموت أهلها وفنائهم، شيئاً فشيئاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يغتروا ويستمروا على ما هم عليه.

﴿أنهم الغالبيون﴾ الذين برسومهم الخروج عن قدر الله؟ ويطاقتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم ليقبض أرواحهم أذعنوا وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يندرون﴾ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ أي: ﴿قل﴾ يا محمد للناس كلهم: ﴿إنما أنذركم بالوحي﴾ أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا



أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله لي، فإن استجبتم، فقد استجبتم لله، وسيبئكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله.

﴿ولا يسمع الصم الدعاء﴾ أي: الأصم لا يسمع صوتاً، لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت، أن يوجد عمل قابل لذلك، كذلك الوحي سب حياة القلوب والأرواح، وللنفق عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى، كان بالنسبة للهدى والإيمان بمنزلة الأصم بالنسبة إلى الأصوات، فهؤلاء الشركون، صم عن الهدى، فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصاً في هذه الحالة التي لم يأتهم العذاب، ولا منهم آله.

فلو مسهم ﴿نفحة من عذاب ربك﴾ أي: ولو جزء يسيراً ولا يسير من عذابه، ﴿ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والشبور والندم، والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم للعذاب.

﴿٤٧﴾ ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ يجيز تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل الذر، الذي توزن بها الحسنات

بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرهما ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها **﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم﴾** أي: يعيبهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرهما أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها **﴿يقال له إبراهيم﴾** فلما تحققوا أنه إبراهيم **﴿قالوا فأتوا به﴾** أي: بإبراهيم **﴿على أعين الناس﴾** أي: بمرأى منهم وسمع **﴿لعلهم يشهدون﴾** أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين واعد فرعون: **﴿ومعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾** فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: **﴿أأنت فعلت هذا﴾** أي: التكسير **﴿بآلهتنا يا إبراهيم؟﴾** وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جراك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

فقال إبراهيم والناس شاهدون: **﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾** أي: كسرهما غضباً عليها، لما عبت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم، القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: **﴿فاسألوه إن كانوا ينطقون﴾** وأراد الأصنام المكسرة، أسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، أسألوه لأي: شيء كسرهما، إن كان عندهم نطق، فيسجيبيونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها عن يريدها بأذى.

﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، **﴿قالوا إنكم أنتم الظالمون﴾** فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم

عبادة الخالق الرازق المدبر؟ وأما الدليل السمعي، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاؤوا به معصوم، لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم، شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلهذا قال إبراهيم: **﴿وأنا على ذلكم﴾** أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل **﴿من الشاهدين﴾** وأي: شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيداً يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا قال: **﴿وتالله لا أكيدن أصنامكم﴾** أي: أكسرهما على وجه الكيد **﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾** عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية **﴿فجعلهم جذاداً﴾** أي: كسراً وقطعاً، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرهما كلها، **﴿إلا كبيراً لهم﴾** أي: إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيبينه، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل محقوت عند الله، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: «إلى عظيم الفرس» «إلى عظيم الروم» ونحو ذلك، ولم يقل «إلى العظيم»، وهنا قال تعالى: **﴿إلا كبيراً لهم﴾** ولم يقل: «كبيراً من أصنامهم». فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: **﴿لعلهم إليه يرجعون﴾** أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: **﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾**

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي **﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾** فرموا إبراهيم

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: **﴿وجدنا آباءنا﴾** كذلك يفعلون، فسلكتنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها، ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصاً في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم مضملاً للجميع: **﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾** أي: ضلال بين واضح، وأي: ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد!! أي: فليس ما قلتم، يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد، **﴿قالوا﴾** على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيهم وتسفيه آباءهم: **﴿أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعين﴾** أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلام لنا، كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما ردوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزلوه منزلة المقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفیه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم رداً بين به وجه سفههم وقلة عقولهم فقال: **﴿بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾** فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفضولاً مدبراً متصرفاً فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله.

أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقاً متصرفاً فيه، لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ويدع

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿ولو طأ آتيناها حكماً وعلماً وننجيناها من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾ وأدخلناهم في رحمتنا إنه من الصالحين ﴿هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس، بالصواب والسداد، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم، لأنهم ﴿قوم سوء فاسقين﴾ كذبوا الداعي، وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً، ليعبدوا عن القرية، فسروا ونجوا، من فضل الله عليهم وميثه.

﴿وأدخلناهم في رحمتنا﴾ التي من دخلها، كان من الأمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب حرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾.

﴿٧٦-٧٧﴾ ﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناها وأهله من الكرب العظيم﴾ ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴿أي: واذكر عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام، مثنياً مادحاً، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويُبدي فيهم ويعيد، ويدعوهم سراً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، فلما رأهم لا يتنجح فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم الزجر، نادى ربه وقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ إنك إن تذرهم

هو العزيز الحكيم ﴿ومن بركة الشام، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس. ﴿ووهبنا له﴾ حين اعتزل قومه ﴿إسحاق ويعقوب﴾ ابن إسحق ﴿نافلة﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق، ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين. ﴿وكلنا﴾ من إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴿جعلنا صالحين﴾ أي: قائمين بحقوقه وحقوق عباده، ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرن بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد.

﴿واقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن من كملهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وكانوا لنا﴾ أي: لا نغيرنا ﴿عابدين﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿نكسوا على رؤوسهم﴾ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تهكم بنا وتستهزئ بنا وتأمرا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

فقال إبراهيم - موبخاً لهم ومعلناً بشركهم على رؤوس الأشهاد، ومبيناً عدم استحقاق آلهتهم للعبادة - : ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا يضركم شيئاً ولا يضركم﴾ فلا نفع ولا دفع، ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ أي: ما أضلكم وأخسر صفتكم، وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدتم العقل، وارتكبت الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالاً منكم.

فحيثما لم أفهمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، ف ﴿قالوا حرّوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ أي: اقتلوه أشتنع القتل، بالإحراق، غضباً لآلهتكم، ونصرة لها. فتعساً لهم تعساً، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهاً، فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار وقال لها: ﴿كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ فكانت عليه برداً وسلاماً، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكروه.

﴿وأرادوا به كيداً﴾ حيث عزموا على إحراقه، ﴿فجعلناهم الأخرسين﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله واتباعه هم الرايحين المفلحين.

﴿ونجيناها ولوطاً﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قبيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ أي: الشام، فصادر قومه في «بابل» من أرض العراق، ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي إنه

ونجينا من الغم وكذلك تنجي المؤمنين ﴿أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون، وهو: يونس، أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم.

[فجاءهم العذاب]، ورأوه عياناً، فعجّبوا إلى الله، وضجّوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾. وقال: ﴿وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون فآمنوا فممتناهم إلى حين﴾. وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس، من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب التي لم يذكرها لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها [لقولته]: ﴿إذ أتى إلى الفلك... وهو مليم﴾ أي: فاعل ما يلام عليه [الظاهر أن^(٢) عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك، وظن أن الله لا يقدر عليه، أي: يضيق عليه في بطن الحوت، أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من عروض هذا الظن للكامل من الخلق على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه، فركب في السفينة مع أناس، فافترعوا، من يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصاب القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فأقر الله تعالى بكمال الألوهية، ونزّهه عن كل نقص وعيب وأفة، واعترف بظلم نفسه وجنابته، قال الله تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين، لبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ ولهذا قال هنا:

عبرة للعابدين، الذين ينتفعون بالعبر، فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أثابه الله بعد زواله، ونظروا السبب، وجدوه الصبر، ولهذا أثنى الله عليه به في قوله: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيهم الضر.

﴿٨٥ - ٨٦﴾ ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾ وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴿أي: واذكر عبدنا المصطفى وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء، إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا الكفل، نبين من أنبياء بني إسرائيل﴾ كل ﴿من هؤلاء المذكورين﴾ من الصابرين ﴿والصبر: هو حبس النفس ومنعها، مما تميل بطبيعتها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها. فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قد وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضاً بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلوب، بمعرفة الله وعيته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والأجل. ولو لم يكن من ثوابهم، إلا أن الله تعالى نوء بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فاستجبنا له



ربه اني مسني الضر وانت ارحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾، أي: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب - مثنياً معظماً له، رافعاً لقدرة - حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابراً راضياً عنه، وذلك أن الشيطان سلط على جسده، ابتلاء من الله وامتحاناً، فنفخ في جسده، فتفرح قروحاً عظيمة، ومكث مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى ربه: رب ﴿انني مسني الضر وانت ارحم الراحمين﴾ فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ، وبرحمة ربه الواسعة العامة فاستجاب الله له، وقال له: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ فركض برجله، فخرجت من ركضته عين ماء باردة، فاغتسل منها وشرب، فأذهب الله ما به من الأذى، ﴿وآتيناه أهله﴾ أي: رددنا عليه أهله وماله.

﴿ومثلهم معهم﴾ بأن منحه الله مع العافية من الأهل والمال شيئاً كثيراً، ﴿رحمة من عندنا﴾ به، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة.

﴿وذكرى للعابدين﴾ أي: جعلناه

(٢) في الأصل: أنه.

(١) زيادة من هامش: ب.

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام، قال مخاطباً للناس: **«وإن هذه أمتكم أمة واحدة»** أي: هؤلاء الرسل المذكورون، هم أمتكم وأمتكم الذين بهم تأتمرون، ويهديم تقنون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضاً واحد.

ولهذا قال: **«وأنا ربكم»** الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحداً، والنبى واحداً، والدين واحداً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: **«فاعبدون»** فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

وكان اللائق، الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، أي: إلا الافتراق والتقطع. ولهذا قال: **«وتقطعوا أمرهم بينهم»** أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقاً، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق معه، والباطل مع الفريق الآخر **«وكل حزب بما لديهم فرحون»**.

وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرز الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: **«كل من الفرق المتفرقة وغيرهم»** إلينا راجعون أي: فتجازيم أتم الجزاء.

ثم فصل جزاءهم، منطوقاً ومفهوماً، فقال: **«فمن يعمل من الصالحات»** أي: الأعمال التي شرعتها الرسل، وحشت عليها الكتب **«وهو مؤمن»** بالله وبرسله، وما جاؤوا به **«فلا كفران لسعياً»** أي: لا نضيع سعياً ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة.

«وإننا له كاتبون» أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف

كلاً على انفراده، أننى عليهم عموماً فقال: **«إنهم كانوا يسارعون في الخيرات»** أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها، **«ويدعوننا رغياً ورهياً»** أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعذرون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون، **«وكانوا لنا خاشعين»** أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

«٩١ - ٩٤» **«والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين»** إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون **«وتقطعوا أمرهم بينهم»** كل إلينا راجعون **«فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعياً وإننا له كاتبون»** أي: واذكر مريم عليها السلام مثنياً عليها مبيناً لقدرها، شامراً لشرفها فقال: **«والتي أحصنت فرجها»** أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها.

وحيث جاءها جبريل في صورة بشر سوي تام الخلق والحسن **«قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً»** فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله.

«وجعلناها وابنها آية للعالمين» حيث حملت به، ووضعته من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها بما ظن بها المهتمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.

«فاستجبنا له ونجيناه من الغم» أي: الشدة التي وقع فيها.

«وكذلك نجى المؤمنين» وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف، لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام.

«٨٩ - ٩٠» **«وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدني فرداً وأنت خير الوارثين»** **«فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغياً ورهياً وكانوا لنا خاشعين»** أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكوره، ناشراً لمناقبه وفضائله، التي من جللتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحته للخلق، ورحمة الله إياه، وأنه **«نادى ربه رب لا تدني فرداً»** أي: **«قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً»** ولم أكن بدعائك رب شقياً **«وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً»** يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً.

من هذه الآيات علمنا أن قوله **«رب لا تدني فرداً»** أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً، ولا يخلف من يشفعه ويعينه، على ما قام به، **«وأنت خير الوارثين»** أي: خير الباقيين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه، **«فاستجبنا له ووهبنا له يحيى»** النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً.

«وأصلحنا له زوجه» بعدما كانت عاقراً، لا يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين.

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين،

التي مع الحفظة . أي : ومن لم يعمل من الصالحات ، أو عملها وهو ليس بمؤمن ، فإنه محروم خاسر في دينه ودينه .

﴿٩٥﴾ ﴿وحرّام على قرية أهلكناها أنتم لا يرجعون﴾ أي : يمنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستردوا ما فرطوا فيه ، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب ، فليحذر المخاطبون ، أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم ، فلا يمكن رفعه ، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك .

﴿٩٦ - ٩٧﴾ ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴿ هذا تحذير من الله للناس ، أن يقيموا على الكفر والمعاصي ، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج ، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم ، وقد سد عليهم ذو القرنين ، لما شكّني إليه إفسادهم في الأرض ، وفي آخر الزمان يفتح السد عنهم ، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف ، الذي ذكره الله ، من كل مكان مرتفع ، وهو الحدب ، ينسلون أي : يسرعون . وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة ، وإسراعهم في الأرض ، إما بذواتهم ، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد ، وتسهل عليهم الصعب ، وأنهم يقهرون الناس ، ويعلون عليهم في الدنيا ، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم .

﴿واقترب الوعد الحق﴾ أي : يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه ، ووعدته حق وصدق ، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفرع والأهوال الزعجة والقلاقل المقلعة ، وما كانوا يعرفون من جناباتهم وذنوبهم ، وأنهم يدعون بالويل والثبور والندم والخسرة على ما فات ، ويقولون ل : ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ اليوم العظيم ، فلم نزل فيها مستغرقين ، وفي

لهو الدنيا متمتعين ، حتى أتانا اليقين ، ووردنا القيامة ، فلو كان يموت أحد من الندم والخسرة ، لما توار . ﴿بل كنا ظالمين﴾ اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم ، فحيث يؤمر بهم إلى النار ، هم وما كانوا يعبدون ، ولهذا قال :

﴿٩٨ - ١٠٣﴾ ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكلّ فيها خالدون ﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾ إن الذين سبقتم لهم منا الحسنی أولئك عنها مبعدون ﴿ لا يسمعون حسيها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴿ ، أي : إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حصب جهنم﴾ أي : وقودها وحطبها ﴿أنتم لها واردون﴾ وأصنامكم .

والحكمة في دخول الأصنام النار ، وهي جهاد لا تعقل ، وليس عليها ذنب ، بيان كذب من اتخذها آلهة ، وليزداد عذابهم ، فهذا قال : ﴿لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾ وهذا كقولته تعالى : ﴿ليبين لهم الذي يتخلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ وكل من العابدين والمجودين فيها خالدون ، لا يخرجون منها ، ولا يتنقلون عنها .

﴿لهم فيها زفير﴾ من شدة العذاب ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ صم بكم عمي ، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها ، لشدة غليانها واشتداد زفيرها وتغيظها .

ودخول آلهة المشركين النار ، إنما هو الأصنام ، أو من عُبد وهو راض بعبادته ، وأما المسيح ، وعزير ، والملائكة ونحوهم ، ممن عبد من الأولياء ، فإنهم لا يعذبون فيها ، ويدخلون في قوله : ﴿إن الذين سبقتم لهم منا الحسنی﴾ أي : سبقتم لهم سابقة السعادة في علم الله ، وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة .

﴿أولئك عنها﴾ أي : عن النار ﴿مبعدون﴾ فلا يدخلونها ، ولا يكونون قريباً منها ، بل يبعدون عنها غاية البعد ، حتى لا يسمعوها حسيها ، ولا يروا شخصها ، ﴿وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ من المأكّل ، والمشارب ، والمناخح والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مستمر لهم ذلك ، يزداد حسنه على الأحقاب ، ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ أي : لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع ، وذلك يوم القيامة ، حين تقرب النار ، تنغيظ على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم ، لعلمهم بما يقدمون عليه ، وأن الله قد أمنهم مما يخافون ، ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾ إذا بعثوا من قبورهم ، وأتوا على النجائب وقد أنتشورهم ، مهتئين لهم قائلين : ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ فلْيَهْنِكُمْ ما وعدكم الله ، وليعظم استشاركم بما أمامكم من الكرامة ، وليكثر فرحكم وسروركم بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبيادي الصالحون ﴿ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظيمها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل أي : الورقة المكتوب فيها ، فتنتثر نجومها ، ويكور شمسها وقمرها ، وتنزل عن أماكنها ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ أي : إعادتنا للخلق ، مثل ابتدائنا لخلقهم ، فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً ، كذلك نعيدهم بعد موتهم .

﴿وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ ننفذ ما وعدنا ، لكامل قدرته ، وأنه لا تمتنع منه الأشياء .

﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ وهو الكتاب المزبور ، والمراد : الكتب المنزلة ، كالتوراة ونحوها ﴿من بعد

الذكر ﴿ أي : كتيبه في الكتب المنزلة ، بعد ما كتيبنا في الكتاب السابق ، الذي هو اللوح المحفوظ ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك : ﴿ أن الأرض ﴾ أي : أرض الجنة ﴿ يرثها عبادي الصالحون ﴾ الذين قاموا بالمأمورات ، واجتنبوا المنهيات ، فهم الذين يورثهم الله الجنات ، كقول أهل الجنة : ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتواً من الجنة حيث نشاء .

ويحتمل أن المراد : الاستخلاف في الأرض ، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض ، ويوليهم عليها كقوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . . . الآية .

﴿ ١٠٦ - ١١٢ ﴾ ﴿ إن فسي هذا لبلاغاً لقوم عابدين * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين * قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون * فإن تولوا فقل أذنتكم على سواء وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون * إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون * وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين * قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾
يشي الله تعالى على كتابه العزيز «القرآن» وبين كفايته التامة عن كل شيء ، وأنه لا يستغنى عنه فقال : ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ أي : يتبلغون به في الوصول إلى ربهم ، وإلى دار كرامته ، فيوصلهم إلى أجل المطالب ، وأفضل الرغائب . وليس للعابدين ، الذين هم أشرف الخلق ، وراه غاية ، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم ، بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وبالإخبار بالغيوب الصادقة ، وبال دعوة لحقائق الإيمان ، وشواهد الإيقان ، المبين للمأمورات كلها ، والمنهيات جميعها ، المعروف بعيوب النفس والعمل ، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله ، والتحذير من طرق الشيطان وبيان مداخله على الإنسان ، فمن لم يغنه

القرآن فلا أعناه الله ، ومن لا يكفيه فلا كفاه الله .

ثم أنشئ على رسوله الذي جاء بالقرآن ، فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ فهو رحمة المهتدة لعباده ، فالؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها ، وغيرهم كفرها ، وبدلوا نعمة الله كفرأ ، وأبوارحة الله ونعمته .

﴿ قل ﴾ يا عمد ﴿ إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو ، ولهذا قال : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أي : منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته ، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما من عليهم بهذه النعمة التي فاقت المن .

﴿ فإن تولوا ﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم ، فحذرهم حلول المثلث ، ونزول العقوبة .

﴿ فقل أذنتكم ﴾ أي : أعلمتكم بالعقوبة ﴿ على سواء ﴾ أي : علمي وعلمكم بذلك مستو ، فلا تقولوا - إذا نزل بكم العذاب : ﴿ ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ بل الآن ، استوى علمي وعلمكم لما أذرتكم وحذرتكم ، وأعلمتكم بمآل الكفر ، ولم أكنم عنكم شيئاً .

﴿ وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون ﴾ أي : من العذاب ، لأن علمه عند الله ، وهو بيده ، ليس لي من الأمر شيء .

﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ أي : لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم ، وأن تمتعوا في الدنيا إلى حين ، ثم يكون أعظم لعقوبتكم .

﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ أي : بيننا وبين القوم الكافرين ، فاستجاب الله هذا الدعاء ، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة ، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة « بدر » وغيرها .

﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أي : تسأل ربنا الرحمن ،

لَا تَسْمَعُونَ حَيْثُ هُمْ وَمَا أَنتُمْ بِأَشْفَعَاءَ لَهُمْ أَشْخَرٌ
تَجِدُونَ ﴿ لَا يَجُودُونَ بِالْحَقِّ الْكَبِيرِ وَتَكْفُرُونَ
أَلَّا تَعْبُدُوا هَذَا إِلَهُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُعْبُدُونَ
﴿ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ كُلُّ نَفْسٍ لِلنَّفْسِ الْكَافِرِ كَنَانًا
بِأَنَّهَا قِيلَ عَلَيْهِمْ وَوَعَدْنَاكَ أَنَّا كَانَتْ قَدِيرًا
﴿ وَقَدْ كُنْتُمْ تَتَّبِعُونَ الَّذِينَ يَدْعُونَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ
يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ الْغَالِبِ إِنَّ فِي هَذَا لَلْحَقَّ الْقَوِيمَ
﴿ عَذِيبَاتٍ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا حَكِيمًا لِّتَعْلَمُونَ
﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَن سَأَلْتُ إِلَهَكُمْ وَاللَّهُ يَجِدُ
أَشْفَقَ لِعِبَادِهِ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ مَا ذُنُوبُكُمْ عَلَى
سِرِّي وَعَلَىٰ ذُنُوبِ أَوْلِيَائِي مَا تَعْبُدُونَ ﴿
إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكُم بِالنَّفْسِ وَتِلْكَ أَمَانَةُ كَيْتُمُونَ ﴿
وَإِن أَدْرَبْتُمْ وَأَعْبَتُوه لَكُمْ وَسَتُحِبُّ آلَ حِينَ ﴿ قُلْ
رَبِّ أَعْمَلُوا بِمِثْلِ الَّذِي كُنتُمْ تُسْأَلُونَ ﴿

ونستعين به على ما تصفون ، من قولكم سنظهر عليكم ، وسيضمحل دينكم ، فنحن في هذا ، لا نعجب بأنفسنا ، ولا نتكلم على حولنا وقوتنا ، وإنما نستعين بالرحمن ، الذي ناصية كل مخلوق بيده ، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته ، وقد فعل ، والله الحمد .

تفسير سورة الحج قيل : مكية ، وقيل : مدنية

﴿ ١ - ٢ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد * يخاطب الله الناس كافة ، بأن يتقوا ربهم ، الذي رباهم بالنعمة الظاهرة والباطنة ، فحقيق بهم أن يتقوه ، بترك الشرك والفسوق والعصيان ، ويمثلوا بأمره مهما استطاعوا .

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ، ويحذرهم من تركها ، وهو الإخبار بأحوال القيامة ، فقال :

﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ لا يقدر قدره ، ولا يبلغ كنهه ، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة ، رجفت الأرض وارتجحت ، وزلزلت زلزالها ،